

ستالين

حَوْلِ  
الماكسيمِ فِي عِلْمِ الْلُّغَةِ



دار الفتح





ستالين

حَوْلِ  
الماكسيم فِي عِلْمِ الْلُّغَةِ

دار القلم

دار القلم

الطبعة الاولى مكتب المطبوعات الشعبية دمشق - بيروت  
الطبعة الثانية : دار القلم ١٩٥٤/٩

قامت في الاخحاد السوفيatic ، في المدة الاخيرة ، مناقشة واسعة ، افتتحتها « البرافدا » على صفحاتها ، حول مسائل علم اللغة . وقد نشرت « البرافدا » في عددها الصادر في ٢٠ حزيران ١٩٥٠ مقالاً ليوسف ستالين ، يعرض فيه ، بأسلوبه الدقيق الواضح ، وجهة النظر الماركسية في علم اللغة . ونحن ننشر فيما يلي ، النص الكامل الحرفي لمقال يوسف ستالين .

رجاني فريق من الرفاق الشباب ابداء رأيي ، عن طريق الصحافة ، بمسائل علم اللغة ، ولا سيما بالقسم المتعلق بالماركسية في علم اللغة . وبما اني لست من علماء اللغة ، فليس في وسعي ، طبعاً ، ان ارضي الرفاق كل الرضا . اما فيما يتعلق بالماركسية في علم اللغة ، كما في العلوم الاجتماعية الاخرى ، فالمسألة تعنىني مباشرة . ولهذا وافقت على الاجابة على جملة من الاسئلة التي طرحتها الرفاق .

سؤال : أصحح ان اللغة هي بناء فوق قائم على بناء

تحتى (١) ؟

جواب : كلا . هذا غير صحيح .

فالبناء التحتى هو النظام الاقتصادي للمجتمع في مرحلة معينة من تطوره . والبناء الفوقي هو آراء (٢) المجتمع السياسية والحقوقية والدينية والفنية والفلسفية وما يطابقها من مؤسسات (٣) سياسية وحقوقية وغيرها .

ان لكل بناء تحتى بناء الفوقي الخاص الذي يطابقه . فالبناء التحتى للنظام الاقطاعي له بناؤه الفوقي ، له آراؤه السياسية والحقوقية وغيرها مع ما يطابقها من مؤسسات . والبناء التحتي الرئيسي ايضاً له بناؤه الفوقي وكذلك البناء

---

(١) - لتعريف « البناء الفوقي » Superstructure « والبناء التحتى » Infrastructure او الاساس Base ، نذكر مقطعاً جاء في كتاب « مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي » لكارل ماركس . قال ماركس . « ان الناس اثناء الاتصال الاجتماعي لميشتم ، يقيمون فيما بينهم علاقات معينة ضرورية مستقلة عن ارادتهم . وتطابق علاقات الاتصال هذه ، درجة معينة من تطور قوام المتابعة المادية . ومجموع علاقات الاتصال هذه يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع ، اي الاساس الواقعى الذي يقوم عليه بناء فوقي حقوقى وسياسي ، وتطابقه كذلك اشكال معينة من الوعي الاجتماعى » .

وقد ذكر ستالين هذه العبارة في كتابه المشهور « المادية الميايكтика والمادية التاريخية » ( الطبعة العربية - ص ٦٢ - المغرب .

(٢) آراء . Opinions

(٣) مؤسسات . Institutions

التحني الاشتراكي . و اذا تغير البناء التحني او زال ، فهو يؤدي الى تغير بناؤه الفوقي او زواله . و اذا نشأ بناء تحني جديد ، فهو يؤدي الى نشوء البناء الفوقي الذي يطابقه . وعلى هذا ، فاللغة تختلف اختلافاً جوهرياً عن البناء الفوقي . لذاخذ مثلاً المجتمع الروسي واللغة الروسية : فخلال الثلاثين سنة الاخيرة ، ازيل البناء التحني الرأسمالي القديم في روسيا واقيم بناء تحني اشتراكي جديد . و نتيجة لذلك ازيل البناء الفوقي القائم على البناء التحني الرأسمالي ، وشيد بناء فوقي جديد ، مطابق للبناء التحني الاشتراكي . وبالتالي بدلت المؤسسات القديمة ، السياسية والحقوقية وغيرها ، بمؤسسات جديدة ، اشتراكية . ولكن رغم ذلك ، ظلت اللغة الروسية ، من حيث الاساس ، كما كانت قبل ثورة اوكتوبر .

وماذا تغير في اللغة الروسية ، خلال هذه المرحلة ؟ لقد تغير ، الى حد ما ، تركيب قاموس اللغة الروسية . تغير يعني انه اغتنى بكمية ملحوظة من الكلمات الجديدة ، والتعابير الجديدة التي نشأت مع الانتاج الاشتراكي ، الجديد ، ومع الدولة الجديدة والثقافة الجديدة الاشتراكية ، والمجتمع الجديد والأخلاق الجديدة ، وآخرآ مع ما احرزه التكنولوجيا والعلم من تقدم . وتغيرت معانٍ كثيرة من الكلمات والتعابير اذ اكتسبت مدلولاً جديداً . وزال من القاموس عدد من الكلمات البالية . اما المضمنون (١) الاساسي للقاموس والبناء

---

(١) المضمون . Fouds .

الفراماطيقي (١) اللغة الروسية ، وهم اساس اللغة ، فنم يصفيا بعد ازالة البناء التحتي الرأسىالي ، ولم يستبدلا بمضمون جوهرى جديد للقاموس ، وبناء غراماطيقي جديد للغة . بل ، بقىما بقامتها ، ولم ينلها اي تبديل جدي — لقد بقىما ، بالضبط ، كأساس (٢) اللغة الروسية المعاصرة .

وبعد ، ان البناء الفوقى يولد البناء التحتى . ييد ان هذا لا يعني بتاتا ان البناء الفوقى لا يكون منه الا ان يعكس البناء التحتى ، وانه غير فعال ، وانه متحايد ، وانه يقت موقف الامبالاة حيال مصير بنائه التحتى ، ومصير الطبقات ، وحيال طبيعة النظام . بل على العكس من ذلك ، فهو ، ما ان يظهر الى الوجود ، حتى يصبح قوة فعالة عظيمة ، ويساعد بناء التحتى ، مساعدة قوية على التكون ، وعلى ترسيرخ اركانه ، ويتحذذ جميع التدابير لمساعدة النظام الجديدي في الاجهاز على البناء التحتى القديم والطبقات القديمة وتصفيتها .

ولا يمكن ان يكون الامر على غير ذلك . فالبناء الفوقى اغا يتولد من البناء التحتى لكي يخدمه ، لكي يساعد بنشاط على التكون وعلى توطيد اركانه ، لكي ينضل بنشاط في سبيل تصفيية البناء التحتى القديم ، الذي هو في طريق الزوال ، مع بنائه الفوقى القديم . ويكتفى ان يتخللى البناء الفوقى عن

---

( ١ ) غراماطيق . علم بناء الكلمات وتركيب العبارات ( Grammaire )  
- العرب .  
( ٢ ) اساس . Base

هذا الدور المساعد ، وان ينتقل من وضع الدفاع النشيط عن بنائه التحتي الى وضع اللامبالاة حياله ، وان يقف موقفاً مائلاً من جميع الطبقات ، حتى يفقد صيته ويكتف عن كونه بناء فوقياً .

ان اللغة ، من هذه الناحية ، تختلف ، اختلافاً اساسياً ، عن البناء الفوقي . فاللغة غير متولدة من هذا البناء التحتي او ذاك ، قدماً كان ام جديداً ، في قلب مجتمع معين ، بل هي متولدة من كل سير تاريخ المجتمع ومن تاريخ الابنية التحتية خلال العصور . فهي ليست صنع طبقة معينة ، بل صنع كل المجتمع ، صنع كل طبقات المجتمع ، ونتاج جهود مئات الاجيال . وقد وجدت لا لسد حاجات طبقة ما ، بل لسد حاجات كل المجتمع ، كل طبقات المجتمع . لقد وجدت بالضبط من حيث هي اللغة الوحيدة للمجتمع ، اللغة المشتركة لجميع اعضاء المجتمع ، لغة الشعب باسره . ولهذا ، فان دور اللغة ، دورها المساعد ، من حيث هي وسيلة الناس للاتصال فيما بينهم ، لا يقوم على خدمة طبقة على حساب طبقات الاخرى ، بل على خدمة كل المجتمع ، كل طبقات المجتمع ، دون تفريق . وهذا ، على الضبط ، ما يفسر كون اللغة تستطيع ان تخدم ، دون تفريق ، النظام القديم المختضر ، والنظام الجديد الصاعد ، وان تخدم البناء التحتي القديم والجديد ، والمستثمرين والمستثمرات ، على السواء . وليس سراً على احد ، ان اللغة الروسية خدمت الرأسمالية

الروسية والثقافة البورجوازية الروسية قبل ثورة اوكتوبر ، كما هي تخدم اليوم ، النظام الاشتراكي والثقافة الاشتراكية المجتمع الروسي .

والشيء ذاته يجب ان يقال عن اللغات الاوكرانية والبيلوروسية والاذبكية والказاکية والجيورجية والارمنية والاستونية والليتوانية والмолдавية والليتوانية والتترية والازربيجانية والبشكيرية والتركمانية وغيرها من لغات الامم السوفياتية ، التي خدمت النظام البورجوازي القديم لهذه الامم كما تخدم النظام الجديد الاشتراكي .

ولا يمكن ان يكون الامر على غير ذلك . فاللغة موجودة من اجل ذلك ، وهي قد انشئت من اجل ذلك : اي لكي تخدم المجتمع بمجمله ، بوصفها اداة تسمح للناس بالاتصال فيما بينهم ، ولكي تكون مشتركة لجميع اعضاء المجتمع ، وواحدة لكل المجتمع ، ولكي تخدم اعضاء المجتمع على السواء ، بصورة مستقلة عن وضعهم الطبقي . ويكتفي ان تتخلى اللغة عن هذا الوضع من حيث هي اداة مشتركة لكل الشعب ، ويكتفي ان تتخذ موقف تفضيل ومساندة لفئة اجتماعية ، على حساب الفئات الاجتماعية الاخرى ، لكي تفقد صفتها ، لكي تكف عن كونها وسيلة الناس للاتصال فيما بينهم ، ولكي تتحول الى « لسان خاص » <sup>(١)</sup> بفئة اجتماعية معينة ، وتأخذ في الانحطاط ، وتحكم على نفسها بالزوال .

---

(١) - لسان خاص . هكذا رأينا ان نترجم كلمة Jargon ( المرب )

فاللغة ، اذن ، مع اختلافها اختلافا تماما عميقا عن البناء الفوقي ، لا تختلف ، مع ذلك ، عن وسائل الانتاج ، مثلما عن الآلات التي هي ايضاً ، مثل اللغة ، لا تبالي بالطبقات ، و تستطيع ان تخدم النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي ، كلها ، دون تفريق .

وبعد ، فان البناء الفوقي هو نتاج عهد يعيش فيه ويعمل ، بناء تحتي اقتصادي معين . ولهذا ، لا يعيش البناء الفوقي طويلاً ، بل يزول ويتلاشى مع زوال البناء التحتي المعين وتلاشيه .

اما اللغة فهي ، على الفد ، نتاج سلسلة طويلة من العهود تتكون خلالها وتنبني وتطور وتصقل . ولهذا ، تعيش اللغة مدة اطول بكثير من اي بناء تحتي ومن اي بناء فوقى . وهذا ، بالضبط ، ما يفسر ان نشوء بناء تحتي وبنائه الفوقي ، وزوالهما ، بل ان نشوء كثير من الابنية التحتية وابنيتها الفوقية المطابقة لها ، وزوالها جميعاً ، لا يؤدي ، في التاريخ ، الى زوال اللغة المعينة ، وزوال بنائهما ، والى نشوء لغة جديدة مع مضمون قاموسي جديد ونظام غراماتيكي جديد .

لقد مررت مائة سنة على وفاة بوشكين . ومنذ ذلك الحين ، ازيل النظمان الاقطاعي والرأسمالي في روسيا ، ونشأ نظام ثالث هو النظام الاشتراكي . فاذن : ازيل بناءان تحييان ، مع بنائيها الفوقيين ، ونشأ بناء تحتي جديد اشتراكي مع بنائه الفوقي الجديد . ومع ذلك ، اذا اخذنا اللغة الروسية مثلما ، تبين لنا انها لم يعثورها تغير اساسي خلال هذه الفترة .

اللطويلة من الزمن ، وان اللغة الروسية المعاصرة لا تختلف  
بياناتها ، عن لغة بوشكين الا قليلاً .

فإذا تغير في اللغة الروسية منذ ذلك العهد ؟ لقد اغتنى  
قاموس اللغة الروسية ، وزال منه عدد كبير من الكلمات  
البالية ، وتبدل معنى كمية هامة من الكلمات ، وتحسن نظام  
اللغة الفراماتيفي . اما فيما يتعلق ببناء اللغة البوشكينية مع  
صيغها الفراماتيفية ، والمضمون الرئيسي لقاموسها ، فقد بقيت ،  
بكل ما فيها من جوهري ، اساساً للغة الروسية المعاصرة .  
وهو شيء مفهوم تماماً . وبالفعل ، ما الفائدة من اث

يلغي ، بعد كل ثورة ، بناء اللغة القائم وتلغي صيغها  
الفراماتيفية ، والمضمون الرئيسي لقاموسها ، ويُستعاض عنها  
مجديداً ، كما يجري عادة بالنسبة للبناء الفوري ؟ ومن ذا الذي  
يستفيد من ان لا يسمى « الماء » و « الارض » و « الجبل »  
و « الغابة » و « السمكة » و « الانسان » و « سار » و « عمل »  
و « انتج » و « تاجر » الخ ، ماء وارضاً وجبل الخ ... بل  
ان تسمى بشكل آخر ؟ واية فائدة من ان لا يتم تغيير  
الكلمات في اللغة ، وتركيب الكلمات في الجملة ، وفقاً  
لفراماتيف الموجود ، بل وفقاً لفراماتيف اخر مختلف ؟ واية  
منفعة تجنيها الثورة من مثل هذا الانقلاب في اللغة ؟ ان التاريخ ،  
على العموم ، لا يفعل ، البتة ، شيئاً جوهرياً بدون ضرورة خاصة .  
وان المرء ليتسائل : ترى اية ضرورة لمثل هذا الانقلاب  
اللغوي ما دام من الثابت بين ، ان اللغة الموجودة ، مع

بنائها ، ملائمة تماماً من حيث الأساس ، طابعات النظام الجديد؟  
ان من الممكن والواجب هدم البناء الفوقي القديم وابداه  
جديد ، في بعض سنوات ، لاطلاق العنان لتطور قوى المجتمع  
المتحدة . ولكن كيف تهدم اللغة الموجودة وتبني لغة جديدة  
مكانها ، خلال بعض سنوات دون ادخال الفوضى في الحياة  
الاجتماعية ، ودون تهديد المجتمع بالتفكك والتفسخ ؟ من  
اذن ، غير الدونكيشوتين ، يمكن ان يضعوا امام انفسهم  
مثل هذه المهمة ؟

وهنالك ، اخيراً ، فرق اساسي بين البناء الفوقي وبين  
اللغة . فالبناء الفوقي ليس مرتبطاً مباشرة بالانتاج ، بنشاط  
الانسان الانتاجي . فهو ليس مرتبطاً بالانتاج الا بصورة غير  
مباشرة ، عن طريق الاقتصاد ، عن طريق البناء التحتي .  
ولهذا فالبناء الفوقي لا يعكس التغيرات في مستوى تطور  
قوى المتنمية فوراً وبصورة مباشرة ، بل يعكسها بعد حدوث  
تغيرات في البناء التحتي ، ويجري ذلك بانعكاس تغيرات  
الانتاج في تغيرات البناء التحتي . وهذا يعني ان دائرة عمل  
البناء الفوقي ضيقة ومحدودة .

اما اللغة ، فهي ، على العكس من ذلك ، مرتبطة بمباشرة ،  
بنشاط الانسان الانتاجي وليس بنشاطه الانتاجي فحسب بل بكل  
نشاط آخر للانسان في جميع ميادين عمله ، من الانتاج حتى البناء  
التحتى ، ومن البناء التحتي حتى البناء الفوقي . ولهذا ، تعكس  
اللغة التبدلات في الانتاج بصورة فورية ومباشرة ، دون

انتظار تغيرات في البناء التحتي . ولهذا ، فدائرة عمل اللغة ، التي تشمل جميع ميادين نشاط الانسان ، هي اوسع جداً وأكثر تنوعاً من دائرة عمل البناء الفوقي ، بل هي أكثر من ذلك ، هي تقريباً غير محدودة .

وهذا ما يفسر ، قبل كل شيء ، لماذا تظل اللغة ، او بصورة أدق ، لماذا يبقى تركيب قاموسها ، في حالة من التبدل الذي لا ينقطع تقريباً . فان النمو الذي لا ينقطع في الصناعة والزراعة والتجارة والنقل ، والتكنيك والعلم ، يتطلب من اللغة ان تكمل قاموسها بكلمات جديدة ، وتعابير جديدة خروجية للعمل في هذه الميادين . واللغة ، التي تعكس هذه الحاجات رأساً ، تكمل قاموسها بكلمات جديدة وتحسن وتتقن نظامها الفراماطيقي .

فاذن : آ - لا يمكن للماركسي ان يعتبر اللغة بناء فوقياً قائماً على بناء تحتي ، ب - ان الخلط بين اللغة والبناء الفوقي ، هو اقتراف خطأ جسيم .



سؤال - أصحح ان اللغة حملت وتحمل دائماً طابعاً طبيئياً ، وان ليس هناك لغة عامة مشتركة وواحدة للجتماع ، لغة لا طابع لها ، لغة هي للشعب باسره ؟  
جواب - كلا . هذا غير صحيح .

ليس من الصعب ان يدرك المرء ان لا مجال للغة طبقية ، في مجتمع خالٍ من الطبقات . وقد كان النظام

البدائي المشاعي ، لا يعرف الطبقات ، وبالتالي لم يكن من الممكن ان تكون فيه لغة طبقية . لقد كانت اللغة فيه مشتركة وواحدة لكل الجماعة . اما الاعتراض القائل بان الطبقة معناتها كل جماعة بشرية ، بما فيها الجماعة البدائية المشاعية ، فهو ليس اعتراضاً ، بل لعباً بالالفاظ لا يستحق الرد والدحض .

اما فيما يتعلق بالتطور اللاحق للغات ، من لغات العشائر حتى لغات القبائل ، ومن لغات القبائل حتى لغات القوميات ، ومن لغات القوميات حتى اللغات الوطنية ، ففي كل مكان وفي جميع مراحل التطور ، كانت اللغة ، من حيث هي وسيلة الناس للاتصال فيما بينهم في المجتمع ، مشتركة وواحدة للمجتمع ، تخدم اعضاء المجتمع على السواء ، بصورة مستقلة عن اوضاعهم الاجتماعية .

ولست اقصد هنا امبراطوريات عهود العبودية والقرون الوسطى ، كامبراطوريتي سيروس واسكندر الكبير ، او امبراطوريتي قيسر وشارمان ، مثلاً ، التي لم يكن لها اساسها الاقتصادي ، والتي كانت تمثل تشكيلاً عسكرية – ادارية ، مؤقتة وغير مستقرة . فلم تكن هذه الامبراطوريات ، بل لم يكن من الممكن ان يكون لها ، لغة واحدة لكل الامبراطورية ، يفهمها جميع اعضاء الامبراطورية . فقد كانت هذه الامبراطوريات تمثل خليطاً من القبائل والشعوب لها حياتها الخاصة ولها لغاتها الخاصة . ولذلك لست اقصد تلك

الامبراطوريات او مشيلاتها الاخرى ، بل اعني القبائل والشعوب التي كانت تدخل في تركيب الامبراطورية ، وكان لها اساسها الاقتصادي ، ولغتها المكونة منذ امد طويل . يقول التاريخ ان لغات هذه القبائل وهذه الشعوب لم تكن ذات طابع طبقي ، بل كانت لغات الشعب كله ، مشتركة للقبائل والشعوب ومفهومة منها .

وكانت هنالك ، طبعاً ، الى جانب اللهجات ، السنة المحلية ، ولكن هذه الألسنة المحلية كانت تابعة وخاضعة للفة الوحيدة المشتركة ، لغة القبيلة او الشعب .

وفيما بعد ، مع ظهور الرأسمالية ، ومع تصفية التجزئة الاقطاعية ، ومع تكوّن سوق وطنية ، تحولت الشعوب الى امم ، وتحولت لغات الشعوب الى لغات وطنية . يبين التاريخ ان اللغات الوطنية ليست لغات طبقية بل لغات مشتركة لكل الشعب ، مشتركة بجميع اعضاء الامة ، وواحدة للامة .

لقد سبق القول ، آنفاً ، ان اللغة ، بوصفها وسيلة الناس للاتصال فيما بينهم في المجتمع ، تخدم جميع طبقات المجتمع على السواء ، وتبدى ، من هذه الناحية ، نوعاً من الالاملاة نحو الطبقات . بيد ان الناس ، بفتاتهم الاجتماعية المختلفة وطبقاتهم ، هم ابعد من ان لا يبالوا باللغة . انهم يجهدون لاستخدامها في سبيل مصالحهم ، ولفرض قاموسهم الخاص ، وألفاظهم الخاصة ، وتعابيرهم الخاصة عليها . وفي

هذا الباب ، تميز بصورة خاصة الفئات العليا من الطبقات المالكة ، التي انفصلت عن الشعب والتي تكرهه ؛ كأرستقراطية النبلاء ، والفئات العليا من البورجوازية . فستكون لهجات « طبقية » و « ألسنة خاصة » ، و « لغات » صالون . وهذه اللهجات والالسنة الخاصة ، كثيراً ما تُعمَّت ، خطأ ، في الأدب ، بلغات ، فيقال : « لغة النبلاء » ، و « لغة البورجوازية » ، مقابل « اللغة البروليتارية » ، و « لغة الفلاحين » . وهل هذا السبب انتهى بعْض رفاقنا ، مع ما يبدو في ذلك من الغرابة ، إلى الاستنتاج بأن اللغة الوطنية وهم من الاوهام ، وان ليس هناك في الواقع ، سوى لغات طبقات .

اني اعتقد ان ليس هناك ما هو أشد خطأ من هذا الاستنتاج . فهل يمكن اعتبار هذه اللهجات وهذه الالسنة الخاصة ، لغات ؟ كلا ، ابداً . ودون ادنى شك . لا يمكن ذلك ، اولاً ، لأن هذه اللهجات وهذه الالسنة الخاصة ليست لها صيغها الفراماطيقية الخاصة ولا قاموسها الاساسي — فهي تستعيرها من اللغة الوطنية . ولا يمكن ذلك ، ثانياً ، لأن هذه اللهجات والالسنة الخاصة تنتشر في دائرة ضيقة بين اعضاء القمة من هذه الطبقة او تلك ، وهي لا تصلح ابداً لأن تكون وسيلة اتصال بين الناس للمجتمع بجمعه . ومن اي شيء تتألف هذه اللهجات والالسنة الخاصة ؟ ان فيها مختارات من بعض الالفاظ الخاصة التي تعكس الاذواق الخاصة للارستقراطية او للفئات العليا من البورجوازية ، وفيها

عدد من التعبير والزاكيـب اللغـية التي تمـيز بما يـراد لها من طابـع أـنيق مـقصـود ، خـالـ من التـعبـير والتـراـكيـب « الفـظـة » المـلـوـجـودـة في الـلـغـة الـوطـنـيـة ، وـفـيهـا ، اـخـيـراً ، عـدـدـ من الـكـلـمـات الـاجـنبـيـة . اـمـا الـكـلـلـ الاسـاسـيـ ، اي الـاـكـثـرـية السـاحـقـة من الـكـلـمـات وـكـذـلـكـ الصـيـغـ الغـرـامـاطـيقـية ، فـهـيـ مستـعـارـة من لـغـةـ كـلـ الشـعـبـ ، من اللـغـةـ الـوطـنـيـة . وـعـلـىـ ذـلـكـ ، فـالـلـهـجـاتـ وـالـلـسـنـةـ اـخـاصـةـ ، تـمـثلـ تـفـرـعـاتـ منـ اللـغـةـ الـوطـنـيـةـ للـشـعـبـ باـسـرـهـ ، تـفـرـعـاتـ محـرـومـةـ كـلـ اـسـتـقلـالـ لـغـويـ ، وـمـقـضـيـاـ عـلـيـهاـ بـحـيـاةـ خـامـلـةـ . اـمـا الـاعـقـادـ بـاـنـ الـلـهـجـاتـ وـالـلـسـنـةـ اـخـاصـةـ تـسـتـطـيـعـ انـ تـتـطـوـرـ اـلـىـ لـغـاتـ مـسـتـقـلـةـ ، قـادـرـةـ عـلـىـ ذـرـحـةـ الـلـغـةـ الـوطـنـيـةـ وـالـحلـولـ عـلـيـهاـ ، فـهـوـ اـخـاعـةـ لـلـأـفـقـ الـتـارـيـخـيـ وـالـخـرـافـ عنـ مـوـاـقـعـ الـمـارـكـسـيـةـ .

انـ هـنـاكـ منـ يـسـتـشـهـدـونـ بـاـرـكـسـ ، وـبـورـدـونـ فـقـرـةـ منـ مـقـالـهـ « سـانـ مـاـكـسـ » ، جاءـ فـيـهـاـ انـ لـبـورـجـواـزـيـ « لـغـتهـ » ، وـانـ هـذـهـ الـلـغـةـ هيـ « نـتـاجـ الـبـورـجـواـزـيـةـ » ، وـاـنـهاـ مـشـبـعـةـ بـالـرـوـحـ الـتـجـارـيـةـ ، رـوـحـ الـبـيـعـ وـالـشـرـاءـ . وـيـرـيدـ بـعـضـ الرـفـاقـ انـ يـدـلـلـواـ ، بـهـذاـ الـاستـشـاهـدـ ، عـلـىـ انـ مـارـكـسـ كانـ يـؤـكـدـ « الطـابـعـ الـطـبـقـيـ » لـلـغـةـ ، وـيـنـكـرـ وـجـودـ لـغـةـ وـطـنـيـةـ وـاـحـدـةـ . وـلـوـ انـ هـؤـلـاءـ الرـفـاقـ لـزـمـواـ مـوقـفـاـ مـوـضـوعـيـاـ فـيـ هـذـهـ مـسـأـلـةـ ، لـيـكـانـ عـلـيـهـمـ انـ يـوـرـدـواـ اـيـضاـ فـقـرـةـ اـخـرىـ منـ الـمـقـالـ عـيـنهـ ، « سـلـتـ مـاـكـسـ » ، حيثـ يـتـحدـثـ مـارـكـسـ ، عـنـ بـحـثـهـ بـإـسـبـيلـ الـمـؤـدـيـةـ إـلـىـ تـكـوـينـ لـغـةـ وـطـنـيـةـ وـاـحـدـةـ ، عـنـ « تـغـرـ كـزـ »

اللهجات في لغة وطنية واحدة ، تبعاً للتركيز الاقتصادي والسياسي » .

كان ماركس يقر اذن بضرورة لغة وطنية واحدة ، باعتبارها شكلاً أعلى تخضع له اللهجات من حيث هي اشكال دنيا .

وفي هذه الحالة ، ماذا يمكن ان تمثل لغة البروجوازي التي هي ، حسب كلمات ماركس ، « نتاج البروجوازية » ؟ هل كان ماركس يعتبرها لغة مماثلة للغة الوطنية ، لها بناء لغوياً خاص ؟ وهل كان من الممكن ان يعتبرها لغة من هذا النوع ؟ كلا بكل تأكيد . لقد اراد ماركس ان يقول فقط ان البروجوازيين قد حشوا اللغة الوطنية الواحدة بغير دامتهم ، مفردات التجارة ، وان للبروجوازيين ، اذن ، لسانهم الخاص ، لسان التجارة .

يتبيّن ، اذن ، ان هؤلاء الرفاق شوهدوا موقف ماركس . وقد شوهدوا لأنهم استشهدوا بماركس لا كماركسيين ، بل كقارئين سطحيين<sup>(١)</sup> ، لا يتعقون الى جوهر المسألة .

ويستشهدون بالجلس ، فيوردون من كراسه المعنون : « حالة الطبقة العاملة في انكلترا » ، العبارات التي جاء فيها ان « ... الطبقة العاملة الانكليزية اصبحت ، شيئاً فشيئاً ، شعباً غير البرجوازية الانكليزية » ، وان « المال يتكلمون

لهجة اخرى ، وهم افكار ومفاهيم اخرى ، وعادات اخرى ، ومبادئ اخلاقية اخرى ، ودين آخر وسياسة اخرى ، غير ما للبورجوازية » . واستناداً الى هذا الاستشهاد ، يستنتج بعض الرفاق ان المجلس كان ينكر ضرورة لغة وطنية مشتركة لكل الشعب ، وبالتالي كان يؤكّد « الطابع الظبيقي » لغة . والصحيح ان المجلس لا يتحدث هنا عن اللغة بل عن اللهجة ، مدركاً كل الادراك ، ان اللهجة ، بوصفها فرعاً من اللغة الوطنية ، لا يمكن ان تحمل مدل اللغة . ولكن يبدو ان هؤلاء الرفاق لا يجدون ابداً وجود فرق بين اللغة واللهجة ... من الواضح ، ان هذا الاستشهاد ليس في محله ، اذ ان المجلس لا يتكلم هنا عن « اللغات الظبيقية » ، بل يتكلم ، بصورة رئيسية ، عن الافكار الظبيقية ، عن المفاهيم والعادات والمبادئ الاخلاقية والدين والسياسة . ومن الصحيح بصورة مطلقة ، ان الافكار والمفاهيم والعادات والمبادئ الاخلاقية والدين والسياسة ، متضادة تضاداً اساسياً لدى البورجوازيين ولدى البروليتاريين . ولكن ما دخل اللغة الوطنية هنا ، او « الطابع الظبيقي » للغة ؟ هل يمكن ان يكون وجود التناقضات الظبيقية في المجتمع ، حجة في صالح « الطابع الظبيقي » للغة او ضد ضرورة لغة وطنية واحدة ؟ تقول الماركسية ان وحدة اللغة هي من اهم علام الامة ، مع علمها تماماً بأن في داخل الامة تناقضات طبقيّة . فهل يعترف الرفاق الآنوذ ذكر بهذه النظرية الماركسية ؟

ويستشهدون بـ « لافارغ » ، قائلين انه ، في كراسه « اللغة الفرنسية قبل الثورة وبعدها » ، يعترف بـ « الطابع الطبيعي » للغة ، وينكر ضرورة لغة وطنية لكل الشعب . ان هذا غير صحيح . فالواقع ان لافارغ يتحدث عن لغة « النبلاء » او اللغة « الاستقرائية » وعن « الالسنة الخاصة » مختلف فئات المجتمع . ولكن هؤلاء الرفاق ينسون ان لافارغ الذي لا يهم بمسألة الفرق بين اللغة واللسان الخاص ، والذي ينعت اللهجات تارة بـ « اللغة المصطنعة » ، وطوراً بـ « اللسان الخاص » ، يعلن بوضوح في كراسه ان « اللغة المصطنعة التي كانت تميز الاستقرائية ... قد استُخرجت من اللغة العامية » التي يتکاملها البورجوازيون والحرفيون وتتكاملها المدينة والقرية » . وبالتالي ، يعترف لافارغ بوجود لغة مشتركة لكل الشعب وبضرورتها ، مدركاً كل الادراك ما تميز به « اللغة الاستقرائية » والالسنة الخاصة الاخرى من خصوصيتها ، بالنسبة للغة كل الشعب .

يتجز عن ذلك ان الاستشهاد بلافارغ يخطيء هدفه . ويتدرون كصحبة وبرهان ، ان الاقطاعيين الانكليز ، في عهد ما في انكلترا ، قد تكلموا الفرنسية « خلال عصور » ، في حين كان الشعب الانكليزي يتكلم اللغة الانكليزية ، وان هذا الواقع هو حجة في صالح « الطابع الطبيعي » للغة ، وخذ ضرورة لغة لجموع الشعب . ولكن ذلك ليس حجة ، بل هو ، بالاحرى ، نكتة . فأولاً ، لم يكن جميع الاقطاعيين ،

في ذلك العهد ، يتكلمون الفرنسية ، بل كان يتكلمها عدد ضئيل ، لا يؤبه به ، من كبار الأقطاعين الانكليز في بلاط الملك وفي الامارات . وثانياً ، لم يكونوا يتكلمون «لغة طبقية» ما ، بل اللغة الفرنسية العادبة ، لغة كل الشعب الفرنسي . وثالثاً ، ان هذا الوله باللغة الفرنسية قد اندثر ، كما هو معلوم ، دون ان يترك اثراً ، واخلي المكان لغة العامة المشتركة لجموع الشعب الانكليزي . فهل يعتقد هؤلاء الرفاق ان الاقطاعين الانكليز قد تفاهموا ، مع الشعب الانكليزي ، طوال عصور ، بواسطة ترجمة ، وانهم لم يكونوا يستعملون اللغة الانكليزية ، وانه لم تكن هناك حينذاك ، لغة انكليزية لكل الشعب ، وان اللغة الفرنسية كانت تمثل وقتذاك ، في انكلترا ، شيئاً جدياً اكثراً من لغة صالون تستعمل فقط في حلقة ضيقة من الارستقراطية الكبيرة ؟ كيف يمكن ، بمثل هذه «الحجج» المضحكة ، انكار وجود لغة مشتركة عامة للشعب بأسره ، وضرورتها ؟ لقد كان الارستقراطيون الروس يتسلون ايضاً ، في زمن ما ، بالتكلم بالفرنسية في بلاط القياصرة وفي الصالونات . وكانوا يفاخرون بهم ، اذ يتكلمون بالروسية ، يوظفون بكلمات فرنسية ، وانهم لا يعرفون التكلم بالروسية الا بنبرة فرنسية . فهل يعني هذا انه لم تكن في روسيا ، وقتذاك ، لغة روسية مشتركة لكل الشعب ، وان لغة الشعب المشتركة كانت وهما ، وان «لغات الطبقات» كانت حقيقة واقعة ؟

ان رفاقنا يرتكبون ، هنا ، خطأين على الأقل :  
الخطأ الأول هو انهم يخلطون بين اللغة والبناء الفوقي .  
فهم يعتقدون انه اذا كان للبناء الفوقي طابع طبقي ، فاللغة  
 ايضاً ينبغي ان لا تكون مشتركة لمجموع الشعب ، بل يجب  
 ان تحمل طابعاً طبقياً . لكنني قلت آنفاً ، ان اللغة والبناء  
 الفوقي يمثلان مفهومين مختلفين ، ولا يستطيع الماركسي  
 قبول الخلط بينهما .

والخطأ الثاني هو ان هؤلاء الرفاق يفهمون التعارض بين  
مصالح البورجوازية ومصالح البروليتاريا ، والنضال الطبقي  
الحادي بينها ، كأنهما المخلاف للمجتمع ، كأنهما انتقطاع لجميع  
الروابط بين الطبقات المتباينة . ففي رأيهم ، ما دام المجتمع  
 قد تفكك ، ولم يبق هناك مجتمع موحد ، بل طبقات فقط ،  
 فلم تبق حاجة الى لغة موحدة للمجتمع ، لم تبق حاجة  
 الى لغة وطنية . واذا ما تفكك المجتمع ولم تبق هناك  
 لغة وطنية مشتركة لكل الشعب ، فماذا يبقى اذن ؟ تبقى  
 طبقات و « لغات طبقة » . وغني عن البيان ان كل « لغة  
 طبقة » يكون لها غراماتيقيها « الطبقي » : غراماتيقي  
 « بروليتاري » وغراماتيقي « بورجوازي » . صحيح ان مثل هذين  
 الغراماتيقين لا وجود لهما في الواقع ، ولكن ذلك لا ينافي  
 هؤلاء الرفاق : فهم يعتقدون ان هذين الغراماتيقين سينشأان  
 يوماً ما .

لقد كان عندنا ، في زمن ما ، « ماركسيون » يؤكدون  
 ان السلك الحديدية التي بقىت في بلادنا بعد ثورة اوكتوبر ،

كانت بورجوازية ، فلا يليق بنا ، نحن الماركسين ، ان نستخدمها . وان من الواجب تحطيمها وبناء سلك حديدية جديدة ، «بروليتارية». ولماذا اطلق عليهم اسم «تروغلو ديت<sup>(١)</sup>» وغني عن البيان ان هذه الآراء الفوضوية البدائية عن المجتمع وعن الطبقات وعن اللغة لا يجمعها جامع بالماركسية . ولكن لا جدال في ان هذه الآراء لا تزال موجودة ، وهي تتبع العيش في دُوَّوس بعض رفاقنا الذين تاهوا وارتباوا في المسألة .

ليس صحيحاً ، طبعاً ، ان المجتمع قد تقىلك ، من جراء النضي الظبي الغيف ، الى طبقات لم تبق مرتبطة احداها بالآخر اقتصادياً في قلب المجتمع نفسه . بل على الصد من ذلك ، فها دامت الرأسمالية في الوجود ، سيبقى البورجوازيون والبروليتاريون مرتبطين معاً بجميع خيوط الاقتصاد كعناصر من مجتمع رأسالي واحد . فالبورجوازيون لا يستطيعون العيش والازاء اذا لم يكن تحت تصرفهم عمال اجراء . والبروليتاريون لا يستطيعون البقاء اذا لم يستغلوا عند الرأسماليين . ان قطع جميع الروابط الاقتصادية بينهم يعني انقطاع كل الانتاج ، وانقطاع كل الانتاج يؤدي الى موت المجتمع ، الى موت الطبقات نفسها . وبديهي ان ما من طبقة تؤيد ان تحكم على نفسها بالفناء . ولذا فنصال الطبقات ، منها

---

( ١ ) -roglytes : سكان الكهوف - العرب .

بلغ من الحدة ، لا يمكن ان يؤدي الى تفكك المجتمع .  
ان جهل مسائل الماركسية وعدم الادراك المطبق لطبيعة اللغة هما ،  
وحدهما ، ما يمكن ان يوحى الى بعض رفاقنا حكاية تفكك  
المجتمع ، واللغات « الطبقية » ، وقواعد الغراماتطبق  
« الطبقية » .

ثم يستشهدون بلينين ويذكرون بأنه اعترف بوجود ثقافتين  
في ظل الرأسمالية ، الثقافة البورجوازية والثقافة البروليتارية ،  
وقال بأن شعار الثقافة الوطنية في ظل الرأسمالية هو شعار  
قومي . كل ذلك صحيح . وللينين على حق هنا تماماً . ولكن  
ما دخل « الطابع الطبقي » للغة هنا ؟ ان هؤلاء الرفاق ،  
باستشهادهم بكلمات لينين عن الثقافتين في ظل الرأسمالية ،  
يريدون ، كما هو واضح ، اقناع القاريء بأن وجود ثقافتين ،  
في المجتمع — الثقافة البورجوازية والثقافة البروليتارية —  
يعني ان من الواجب وجود لغتين في المجتمع ، لأن اللغة  
مرتبطة بالثقافة ، وبأن لينين ، وبالتالي ، ينكر ضرورة لغة  
وطنية واحدة ، واذن ، فلينين يقول باللغات « الطبقية » .

ان خطأ هؤلاء الرفاق هنا هو في المهالة والخلط بين اللغة  
والثقافة . غير ان الثقافة واللغة شيئاً مختلفان . فالثقافة يمكن  
ان تكون بورجوازية او اشتراكية . اما اللغة ، بوصفها وسيلة  
اتصال ، فهي دائماً لغة مشتركة لكل الشعب وتستطيع ان تخدم  
الثقافة البورجوازية والثقافة الاشتراكية . ليس امراً واقعاً ، ان  
اللغات الروسية والاوكرانية والاذربيجانية تخدم الثقافة الاشتراكية

لهذه الامم اليوم ، مثلاً كانت تخدم ثقافاتها البورجوازية قبل ثورة اوكتوبر ؟ فهؤلاء الرفاق يخطئون خطأً فادحًا حين يؤكدون ان وجود ثقافتين مختلفتين يؤدي الى تكون لغتين مختلفتين ، والى نفي ضرورة لغة وحيدة . لقد كان لينين ، في كلامه عن الثقافتين ، يبدأ ، بالضبط ، من هذه النظرية القائلة بان وجود ثقافتين لا يمكن ان يؤدي الى انكار اللغة الواحدة والى تكون لغتين ، وان اللغة يجب ان تكون واحدة . ولما بدأ « البونديون »<sup>(١)</sup> يتهمون لينين بانكار ضرورة اللغة الوطنية وباعتبار الثقافة شيئاً « غير وطني » ، احتج لينين بشدة ، كما هو معلوم ، على هذه التهمة ، واعلن انه يحارب الثقافة البورجوازية لا اللغة الوطنية التي يعتبر ضرورتها شيئاً لا جدال فيه . ومن الغريب ان يبدأ بعض رفاقنا باقتداء آثار البونديين .

اما فيما يتعلق باللغة الواحدة ، التي زعموا ان لينين انكر ضرورتها ، فيجدر بنا سامع كلمات لينين التالية : « اللغة هي وسيلة اساسية للاتصال بين الناس . ووحدة اللغة وتطورها بغير عائق ، يشكلان شرطاً من الشروط الاساسية للمبادرات

( ١ ) البوند : منظمة يهودية لبورجوازية الصغيرة الانتهازية ، وجدت في روسيا قبل ثورة اوكتوبر الاشتراكية - المغرب .

التجارية الحرة فعلاً والواسعة فعلاً ، المطابقة للرأسمالية المعاصرة ، ولتجمع السكان ، في جميع الطبقات المختلفة ، تجتمعاً حراً واسعاً .

ينتج اذن ، ان رفاقنا قد شوهوا نظرات لينين . ويستشهدون اخيراً بستالين . فيأخذون كلمات ستالين القائلة بان « البورجوازية واحزابها القومية كانت وما تزال » في هذا العهد ، القوة الرئيسية القائدة للأمم ». كل هذا صحيح . فالبورجوازية وحزبها القومي يقودان فعلاً الثقافة البورجوازية ، كما ان البروليتاريا وحزبها الاممي يقودان الثقافة البروليتارية . ولكن ما دخل « الطابع الظبي » لغة ، هنا ؟ الا يعرف هؤلاء الرفاق ان اللغة الوطنية هي شكل للثقافة الوطنية ، وان اللغة الوطنية تستطيع ان تخدم الثقافة البورجوازية والثقافة الاشتراكية كلتيها ؟ وهل يجهل رفاقنا الصيغة المعروفة جيداً عند الماركسيين ، ومؤداتها ان الثقافات الحالية الروسية والاوكرانية والبيلاروسية وغيرها ، هي اشتراكية بالمعنى ، ووطنية بالشكل اي باللغة ؟ فهل هم موافقون على هذه الصيغة الماركسية ؟

ان خطأ رفاقنا هو في انهم لا يرون الفرق بين الثقافة واللغة ولا يدركون ان محتوى الثقافة يتغير ، في كل مرحلة جديدة من مراحل تطور المجتمع ، في حين ان اللغة تبقى هي ذاتها ، من حيث الاساس ، طوال مراحل عديدة ، وتخدم الثقافة الجديدة والقديمة على السواء .

اذن : آ - ان اللغة ، بوصفها وسيلة للاتصال ، كانت  
دائماً وما زال ووحدة للمجتمع ، ومشتركة لجميع اعضاء  
المجتمع . ب - ان وجود اللهجات واللسنة الخاصة لا ينفي ،  
بل يؤكّد وجود لغة لكل الشعب ، تكون هذه اللهجات  
واللسنة الخاصة تفرعات منها وتتابعة لها . ج - ان صيغة  
« الطابع الطبيعي » للغة صيغة خاطئة ، غير ماركسيّة .

●

سؤال - ما هي العلائق المميزة للغة ؟  
جواب - اللغة هي في عداد الاحداث الاجتماعية التي تظهر  
طوال مدة وجود المجتمع . وهي تولد وتطور مع ولادة  
المجتمع وتطوره ، وعموت في نفس الوقت الذي يوت فيه  
المجتمع . وليس ثمة لغة خارج المجتمع . ولهذا لا يمكن فهم  
اللغة وقوانين تطورها ، الا اذا درست اللغة بالاتصال الوثيق  
بتاريخ المجتمع ، بتاريخ الشعب الذي تخصه اللغة المدرستة  
والذى هو خالقها وحاميها .

اللغة هي وسيلة ، هي اداة ، بعوتها يتصل الناس بعضهم  
ببعض ، ويتبادلون افكارهم ويتوصلون الى ان يفهم احدهم  
الآخر بصورة متبادلة . ان اللغة التي هي مرتطة بالفکر  
ارتباطاً مباشراً ، تُسجّل وتثبت ، في الكلمات ، وفي ما تؤلفه  
تواكيب الكلمات من عبارات ، نتائج عمل الفكر ، ونجاحات

عمل الانسان في سبيل توسيع معارفه ، وهكذا تجعل تبادل الافكار في المجتمع الانساني ممكناً .

ان تبادل الافكار ضرورة دائمة وحيوية ، اذ بدونه ، من المستحيل تنسيق اعمال الناس المشتركة في النضال ضد قوى الطبيعة ، في النضال لانتاج الخيرات المادية الضرورية ، ومن المستحيل تحقيق نجاحات في النشاط الاتساعي للمجتمع – واذن ، فحتى وجود الانتاج الاجتماعي يصبح مستحيلاً . وبالتالي ، فبدون لغة مفهومة للمجتمع ومشتركة لجميع اعضائه ، يكفي المجتمع عن الانتاج ويفتكك ، ولا يبقى له وجود كمجتمع . ومن هذه الناحية ، ما دامت اللغة اداة للعلاقات بين الناس ، فهي ، في الوقت نفسه ، اداة نضال وتطور للمجتمع .

ان جميع الكلمات الموجودة في لغة ما ، تؤلف ، بمجموعها ، كما هو علوم ، ما يسمى بقاموسها<sup>(١)</sup> . والشيء الاساسي في قاموس اللغة ، هو المضمن الرئيسي للقاموس ، الذي يتتألف نواه من جميع الكلمات الاصلية . وهذا المضمن الرئيسي هو اقل اتساعاً من مجموع قاموس اللغة بكثير ، ولكنه يعيش طويلاً جداً ، يعيش خلال عصور ، ويخدم كأساس لتكوين كلمات جديدة . ان القاموس يعكس صورة عن حال اللغة : فاللغة تكون اكثر غنى وتطوراً ، بقدر ما يكون قاموسها اكثر غنى وتطوراً .

غير ان القاموس ، مأخوذاً لوحده ، لا يوْلِف اللغة . فهو ، بالاحرى ، يمثل مواد البناء للغة . وكما ان مواد البناء في العمار ليست هي البناء ، رغم ان من المستحيل تعمير البناء بدونها ، كذلك القاموس ليس هو اللغة بذاتها ، رغم انه لا يمكن تصور اية لغة بدونه . ولكن القاموس يكتسب اهمية كبيرة حين يوضع تحت تصرف غراماتيقي اللغة ، الذي يحدد القواعد التي تضبط تبدل الكلمات ، والقواعد التي تضبط تركيب الكلمات في عبارات ، ويعطي اللغة بذلك طبيعة منسجمة ومعقوله . ان الغراماتيقي ( تاريخ تحول الكلمات ( الصرف ) والنحو ) هو مجموعة قواعد حول تغير الكلمات وحول تركيبها في العبارة . واذن ، فبفضل الغراماتيقي على وجه الضبط ، تكتسب اللغة امكان إلباس الافكار البشرية ، غالباً مادياً ، هو غلاف اللغة .

ان الصفة المميزة للغراماتيقي هي انه يقدم قواعد التبدلات في الكلمات ، دون ان يستهدف كلمات معينة واقعية ، بل يستهدف الكلمات بوجه عام ، دون اي طابع واقعي لها . ويعطينا الغراماتيقي القواعد لتركيب العبارات دون ان يستهدف عبارة واقعية معينة ، اي دون ان يستهدف مثلاً ، فاعلاً ملموساً واقعياً ، وفعلاً ملموساً واقعياً ... الخ ، بل يأخذ جميع العبارات بوجه عام ، بصورة مستقلة عن الشكل الملموس الواقعي لهذه العبارة او تلك . واذن ، فالغراماتيقي ، بتركه ،

جانباً ، الخاص والواقي ، سواء في الكلمات ام في العبارات ، يأخذ ما هنالك من عام في اساس تغيير الكلمات وتركيبيها في العبارات ، ويستخلص من ذلك ، التواعد الغراماتيقية ، القوانين الغراماتيقية .

ان الغراماتيق هو نتيجة عمل تجريد طويل المدى ، قام به الفكر البشري ، هو علامة بناحات عظيمة للفكر .

ومن هذه الناحية يذكر الغراماتيق بالهندسة التي تضع قوانينها بصرف النظر عن الاشياء الواقعية ، اذ تعتبر الاشياء اجساماً غير ملموسة وغير واقعية ، وتعين فيها بينها علاقات ليست هي علاقات ملموسة بين اشياء ملموسة بل علاقات بين اجسام بوجه عام ، اجسام محرومة كل خاصية ملموسة واقعية .

وخلالاً لبناء الفوقي الذي هو غير مرتبط بالانتاج بصورة مباشرة ، بل بواسطة الاقتصاد ، فان اللغة مرتبطة مباشرة بالنشاط الانتاجي للانسان ، كما هي مرتبطة بكل نشاط آخر له في جميع ميادين عمله دون استثناء . ولهذا فان قاموس اللغة أشد ما يكون احساساً بالتبديلات ، فهو في حالة تبدل يكاد لا ينقطع . وتتبغي الاشارة الى ان اللغة ، خلافاً للبناء الفوقي ، ليس من شأنها ان تنتظر زوال البناء التحتي ، فهي تدخل التبديلات في قاموسها قبل زوال البناء التحتي ، وبصورة مستقلة عن حالة البناء التحتي .

بيد ان قاموس اللغة لا يتغير ، كالبناء الفوقي ، بالقضاء على القديم وبناء الجديد ، بل هو يتغير باكمل المفردات الموجودة بكلمات جديدة ، تكونت نتيجة لما يحدث من تغيرات في النظام الاجتماعي ، ونتيجة لتطور الاتصال والثقافة والعلم الخ ... ومع ان عدداً من الكلمات البالية يزول عادة من مفردات اللغة ، ففي الوقت نفسه ، يضاف الى هذه المفردات عدد اعظم من الكلمات الجديدة . اما المضمن الاساسي لمفردات اللغة ، فيبقى كما هو من حيث جوهره ، ويُستعمل كأساس لمفردات اللغة<sup>(١)</sup> .

وهو شيء من السهل فهمه . فليس ثمة ضرورة هدم المضمن الاساسي للقاموس ، في حين يمكن استعماله بنجاح خلال سلسلة طويلة من المراحل التاريخية . هذا عدا ان هدم المضمن الاساسي للقاموس ، المتراكم خلال اجيال برمتها ، يؤدي الى شلل في اللغة والى اشاعة التشويش التام في العلاقات بين الناس ، وذلك نظراً لاستحالة خلق مضمون اساسي جديد للقاموس في فترة وجيزة من الزمن .

ان النظم الفرلماطيقي في اللغة يتغير ايضاً بصورة اشد بطأ من تغير المضمن الاساسي للقاموس . ان النظام

(١) – ان كلمة *vocabulaire* ترجمت احياناً بـ «مفردات» واحياناً بـ «قاموس» . المرب .

الغراماتيقي الذي تكون خلال اجيال كاملة واصبح من حلم اللغة ودمها ، يتغير ايضاً بصورة أشد بطاً من تغير المضمن الاساسي للقاموس . وصحيح انه يتعرض مع الزمن للتغيرات ، فيتكمّل ، ويدخل على قواعده تحسيناً ودقة ، ويفتحني بقواعد جديدة ، ولكن اسس هذا النظام الغراماتيقي تبقى لمرحلة من الزمن ، طويلة جداً . ذلك لأنها ، كما يثبت من التاريخ ، تستطيع ان تخدم المجتمع بنجاح ، خلال سلسلة طويلة من العصور .

وهكذا ، فالبناء الغراماتيقي للغة ، والمضمن الاساسي للقاموس ، يشكلان اساس اللغة ، يشكلان جواهر ميزاتها الخاصة .

ان التاريخ يسجل للغة استقراراً عظيماً ومقاومةً جباراً ضد اهتمامها<sup>(١)</sup> بالقوة . وقد اقتصر بعض المؤرخين على ابداء دهشتهم من هذه الظاهرة ، بدلاً من شرحها وتفسيرها . ولكن ليس في هذا الامر أي سبب للدهشة . فاستقرار اللغة يفسره استقرار نظامها الغراماتيقي والمضمن الاساسي لقاموسها . لقد أجهد المحتضون الاتراك انفسهم ، طوال اجيال ، لاجل تعطيل لغات الشعوب البلقانية ، وهدم هذ

اللغات ومحوها . وخلال هذه المرحلة طرأ تغيرات على قواميس اللغات البلقانية هامة . فتبينت كلمات وتعابير تركية عديدة . وحدثت « توافقات » و « تباينات » ، ولكن اللغات البلقانية قاومت ، مع ذلك ، وبقيت . ولماذا ؟ لأن النظام الغراماتيقي والمضمن الأساسي لقاموس هذه اللغات حافظا على نفسها ، بخطوطها الكبرى . ينبع من هذا كله أن اللغة وبناؤها لا يمكن اعتبارهما تتاجراً لعهد من العهود . بل ان بناء اللغة ونظامها الغراماتيقي والمضمن الأساسي لقاموس ، مما تناجع عهود عديدة . وانه ليصح الافتراض بأن عناصر اللغة الحديثة قد تكونت منذ اقدم العصور ، وقبل عهد الرق . وكانت يومئذ لغة قليلة التعقيد وذات قاموس فقير ، ولكن كان لها نظامها الغراماتيقي الخاص ، الذي كان بدائياً حقاً ، الا انه كان ، مع ذلك ، نظاماً غراماتيقياً .

ان تطور الاتاج فيما بعد ، وظهور الطبقات ، وظهور لغة الكتابة ، ونشوء الدولة التي تحتاج ، في ادارتها ، الى مراسلات على شيء من التنظيم ، وتطور التجارة التي هي بمثابة اكبر الى مراسلة منتظمة ، وظهور آلات الطباعة ، وتطور الادب – ان جميع هذه الواقع قد ادخلت تغيرات جرى بمبادرة من السلطة القائمة ، مع مساندة الجماهير العظيمة في تطور

اللغة . وخلال ذلك ، كانت القبائل والشعوب تنقسم وينفصل بعضها عن بعض ، وتحتبط ويتشابك بعضها ببعض ، وظهرت ، فيما بعد ، لغات وطنية ودول وطنية ، ووقدت انتقالات ثورية ، وبدلت الانظمة الاجتماعية القديمة بأنظمة جديدة . فجميع هذه الاحداث ادخلت ايضاً مزيداً من التغيرات على اللغة وعلى تطور اللغة .

ولكن من الخطأ الفادح الاعتقاد بان تطور اللغة قد جرى كتطور البناء القوقي : بهدم الموجود وبناء الجديد . فلقد تطورت اللغة ، في الواقع ، لا بهدم اللغة الموجودة وصنع لغة جديدة ، بل بتطوير العناصر الاساسية لغة الموجودة وانتقان هذه العناصر . وتتبغي الاشارة الى ان الانتقال من كيفية اللغة الى كيفية اخرى ، لم يحدث عن طريق الانبعارات ، ولا عن طريق هدم البالي دفة واحدة ، واقامة الجديد ، بل عن طريق تراكم عناصر الكيفية الجديدة ، عناصر البناء الجديد للغة ، تراكمًا تدريجياً خلال مرحلة من الزمن طويلة ، وعن طريق تلاشي عناصر الكيفية القديمة تلاشياً تدريجياً .

ويقولون ان نظرية تطور اللغة ، على مراحل ، هي نظرية ماركسية لأنها تعترف بضرورة الانبعارات المفاجئة كشرط لانتقال اللغة من الكيفية القديمة الى الجديدة . ان هذا خطأ ، طبعاً ، اذ من الصعب ان تجد شيئاً من الماركسية ، ولو ضئيلاً ، في هذه النظرية . واذا كانت نظرية

التطور على مراحل ، تعرف حتى الانفجارات المفاجئة في تاريخ تطور اللغة ، فهي وشأنها . فالماركسية لا تعرف بالانفجارات المفاجئة في تطور اللغة ، ولا بالزوال المفاجئ للغة الموجدة ، ولا بالتكوين المفاجئ للغة الجديدة . ان لافارغ لم يكن على صواب حين تكلم عن « الثورة اللغوية المفاجئة في فرنسا بين عامي ١٧٨٩ و ١٧٩٤ » ، (راجع كراس لافارغ « اللغة الفرنسية قبل الثورة وبعدها ») . ففي ذلك العهد لم تحصل في فرنسا اية ثورة لغوية ، بل ثورة مفاجئة ! صحيح ان قاموس اللغة قد اعنى في ذلك العهد ، بكلمات جديدة وتعابير جديدة ، وزالت منه كثيّة من الكلمات البالية ، وتغير معنى بعض الكلمات . هذا كل ما حدث . ولكن مثل هذه التغيرات لا تقرر بتأتأ مصائر اللغة فالشيء الرئيسي في لغة ما ، هو نظامها الغرامaticي والمضمن الاساسي لقاموسها . غير ان النظام الغرامaticي والمضمن الاساسي لقاموس اللغة الفرنسية ، لم ينقرضا في عهد الثورة البورجوازية الفرنسية . فقد بقيا دون تغيرات هامة . بل هما لم يبقيا وحسب ، اغا هما يتبعان الحياة ، الان ايضا ، في اللغة الفرنسية المعاصرة . ولست بحاجة الى القول بأنه من اجل تصفيه اللغة القائمة وبناء لغة وطنية جديدة ( اي تحقيق « ثورة لغوية مفاجئة ! » ) ، ففترة خمسة اعوام او ستة هي فترة قصيرة جداً تثير السخر . فذلك يتطلب قروناً كاملة .

تعتبر الماركسية ان انتقال اللغة من كيفية قديمة الى كيفية جديدة ، لا يحصل عن طريق انفجار ولا عن طريق هدم

اللغة القائمة وبناء اخرى جديدة ، بل عن طريق تراكم عناصر الكيفية الجديدة تراكمًا تدريجياً ، وبالتالي عن طريق اضحلال عناصر الكيفية التالية اضحلاً تدريجياً . ويجب القول عموماً ، للاجابة على سلوك الرفاق المغزفين بالانفجارات ، ان قانون الانتقال من الكيفية القديمة الى كيفية جديدة عن طريق الانفجار ، ليس غير قابل للتطبيق على تاريخ تطور اللغة وحسب ، بل هو كذلك ليس داثناً قابلاً للتطبيق على حوادث اجتماعية اخرى سواء كان الامر متعلقاً بالابنية التحتية ام بالابنية الفوقيه . ان هذا القانون إلزامي بالنسبة للمجتمع المنقسم الى طبقات متعددة . ولكنه غير إلزامي قطعاً لمجتمع ليس فيه طبقات متخصصة . فنحن ، في حقبة تتراوح بين مئانية اعوام الى عشرة ، حققنا الانتقال بزراعة بلادنا من النظام البورجوازي ، من النظام الفلاحي الفردي ، الى النظام الكولوخوزي الاشتراكي . وكان ذلك ثورة ازالت النظام الاقتصادي البورجوازي القديم في القرية وخلقت نظاماً جديداً اشتراكياً . ومع ذلك ، لم يجر هذا الانعطاف الاساسي عن طريق الانفجار ، اي عن طريق قلب السلطة القائمة واقامة سلطة جديدة ، بل جرى عن طريق الانتقال التدريجي من النظام القديم البورجوازي في الارياف القروية الى نظام جديد . وقد نجحنا في القيام بذلك ، لأنها كانت ثورة من فوق ، لأن هذا الانعطاف الاساسي جرى مبادرة من السلطة القائمة ، مع مساندة الجماهير الاساسية من الفلاحين .

ويقولون ان الواقع المتعدد في التاريخ عن تداخل اللغات ، تفسح مجالاً لافتراض بانه ، خلال هذا التداخل ، تولد لغة جديدة عن طريق الانبعاث ، عن طريق الانتقال الفجائي من الكيفية القديمة الى الكيفية الجديدة . ان هذا خطأ مطلق . فلا يمكن اعتبار تداخل اللغات عملاً وحيداً ، ناشتاً عن ضربة حاسمة تعطي نتائجها في بحر بضع سنوات . ان تداخل اللغات عملية طويلة الامد ، تدوم مئات السنين . ولهذا السبب ، لا يمكن ان تكون المسألة هنا مسألة انبعاث . وبعد ، من الخطأ المطلق الاعتقاد بان تداخل لغتين مثلاً ، ينبع لغة ثالثة لا تشبه اية واحدة من اللغتين المتداخلتين ، وتميز عن كل منها من حيث الكيفية . فالواقع انه ، خلال التداخل ، تخرج احدى اللغتين ، عادة ، ظافرة ، وتحتفظ ببنائهاgrammatical ، وبالمضمن الاساسي لقاموسها ، وتستمر في التطور وفي القوانين الداخلية لتطورها ، بينما تفقد اللغة الاخرى كيتها شيئاً فشيئاً ، وتضمحل بالتدريج .

واذن ، فالتدخل لا ينبع لغة ثالثة ، لغة جديدة ، بل يحتفظ ب احدى اللغات ، يحتفظ بنظامهاgrammatical وبالمضمن الاساسي لقاموسها ، ويسمح لها بان تتطور وفق القوانين الداخلية لتطورها .

صحيح ان قاموس اللغة الظافرة يعني ، على حساب اللغة المفلوبة ، ولكن هذا لا يضعف اللغة الظافرة ، بل على العكس ، يقويها .

وهو ما حدث مثلاً لغة الروسية التي تداخلت معها ، في غضون تطورها التاريخي ، لغات شعوب أخرى ، فخرجت دائياً ظافرة . صحيح ان قاموس اللغة الروسية قد أغنتي خلال ذلك على حساب مفردات اللغات الأخرى ، ولكن هذه العملية لم تضعف اللغة الروسية بل بالعكس اغتها ووطدتها . أما الاصلة الوطنية للغة الروسية ، فلم تمس ، لأن اللغة الروسية ، باحتفاظها بنظامها الغراماتيقي وبالمضمون الرئيسي لقاموسها ، قد استمرت في التقدم والتكامل وفق القوانين الداخلية لتطورها .

بما لا شك فيه ، ان نظرية التداخل لا يمكن ان تقدم شيئاً جدياً الى علم اللغة السوفيتي . وإذا كان حقاً ان دراسة القوانين الداخلية لتطور اللغة تمثل المهمة الرئيسية لعلم اللغة ، فيجب الاقرار بان نظرية التداخل لا تحل هذه المهمة ، بل حتى لا تطرحها على بساط البحث – إنها بكلمة بسيطة ، لا تلاحظها ، او إنها لا تفهمها .



سؤال : هل احست « البرافدا » صنعاً بان افتتحت مناقشة حرية حول مسائل علم اللغة .  
جواب : لقد احست صنعاً .

ان الاتجاه الذي ستحصل به مسائل علم اللغة ، سيظهر بوضوح عند انتهاء المناقشة . ولكن يمكن القول ، منذ الآن ،

ان المناقشة كانت مفيدة جداً . فقد اظهرت ، قبل كل شيء ، ان نظاماً غير جدير بالعلم والعلماء يسود في الهيئات المشغولة بعلم اللغة ، سواء في المركز او في الجمهوريات . فان افلانتقاد للحالة السائدة في علم اللغة السوفيافي ، وحتى ابسط المحاولات لنقد المذهب المدعى به «المذهب الجديد» في علم اللغة ، كان نصيتها الاضطهاد والخنق من قبل الاوساط القائدة في علم اللغة . فان بعض ذوي القيمة من المشغلي في ميدان علم اللغة ، كانوا يعزلون من مناصبهم ، او يعيثون في وظائف ادنى ، لمجرد اتخاذهم موقفاً انتقادياً تجاه «تراث ن. ج. مار» . او ابدائهم نوعاً من عدم الموافقة على مذهب ن. ج. مار . وكان علماء اللغة يُدفعون الى المناصب العالية ، لا من اجل مزاياهم في العمل بل وفقاً لقبوهم دون تحفظ مذهب مار . ان ثمة شيئاً معترضاً به من الجميع هو ان العلم لا يمكن ان يتطور ويزدهر بدون نضال بين الآراء ، بدون حرية الانتقاد . بيد ان هذه القاعدة التي يعترف بها الجميع كانت موضع التجاهل ومدوسة بالاقدام ، بلا حياء . فقد تكونت جماعة منعزلة من القادة الموصون عن الخطأ الذين شرعاً ، بعدما اخذوا التدابير ليصبحوا في مأمن من اي إمكان للانتقاد ، يتصرفون حسب اهوائهم ويرتكبون الواناً من سوء الاستعمال . اليكم مثالاً : ان ما يسمى به «دروس باكتو» (محاضرات مار القاتها في باكتو) ، وقد سببها مؤلفها نفسه ومنع اعادة طبعها ، قد اعيد طبعها رغم ذلك ، بناء على امر من زمرة القادة (من يدعوهם الرفيق ميشيلشانينوف

« تلاميذ » مارّ ) ، وأدخلت في عداد الكتب المدرسية المقررة لطلاب دون اي تحفظ ، وهذا يعني انهم خدعوا الطلاب بتقديم « دروس » غير صحيحة ، لهم ، على انها كتاب مدرسي كبير القيمة . ولو لم اكن مقتنعاً بـ نزاهة الرفيق ميشيتشارنوف وغيره من علماء اللغة ، لقلت ان مسلكاً كهذا معادل للتخريب .

فكيف امكن ان يحدث ذلك ؟ لقد حدث ذلك ، لأن طريقة « اراكتشيف » السائدة في علم اللغة ، تغذي انعدام المسؤولية ، وتسهل وقوع مثل هذا النوع من سوء الاستعمال .

كانت المناقشة مفيدة جداً ، لأنها ، قبل كل شيء ، قد القت ضوءاً على كل هذا النظام الاراكتشيفي الاستبدادي وحطمه إرباً إرباً .

غير ان فائدة المناقشة لم تقتصر على هذا . فهي لم تحطم فقط النظام التقديم في علم اللغة ، بل اظهرت ايضاً ما لا يصدق من تشوش في الآراء ، في اهم مسائل عنم اللغة ، تشوش يسود في الاوساط القائدة لهذا الفرع من العلم . لقد كانوا حتى قيام المناقشة ، ساكتين ، كانوا يلزمون الصمت حول الحالة غير المرضية في علم اللغة . ولكن بعد بدء المناقشة ، اصبح من المستحيل التزام الصمت ، فاضطروا الى التدخل على صفحات الصحف . فماذا ترج عن ذلك ؟ تبين ان في مذهب ن. ج. مارّ سلسلة طويلة من النواصص

والاخطاء ، ومن القضايا غير المدققة ، ومن المبادئ غير المهيأة . ومرة سؤال يضع نفسه بنفسه : لماذا لم يشرع « تلاميذ ن. ج. مار » بالكلام ، إلا الآن بعد افتتاح المناقشة ؟ لماذا لم يلاحظوا ذلك من قبل ؟ لماذا لم يقولوا ذلك في حينه بصورة مكشوفة وصريحة كما ينبغي لهم ان يفعلوا كرجال علم ؟

ان « تلاميذ » ن. ج. مار ، بعد اعترافهم به « بعض » اخطاء ن. ج. مار ، يعتقدون ، على ما يظهر ، ان ليس بالامكان تطوير علم اللغة السوفياتي إلا على اساس نظرية مار « المدققة » التي يعتبرونها ماركسية . فرجائي اليكم ان تعفونا من « ماركسية » ن. ج. مار . لقد كان ن. ج. مار حقاً يريد ويجهد ان يكون ماركسيّاً ، ولكنه ما استطاع ان يصبح كذلك . فهو لم يكن غير مبسط ، ومعتم للماركسيّة ، على طراز نوع اعضاء منظمة « بروليتو كولت »<sup>(١)</sup> او من نوع اعضاء « الجمعية الروسية للكتاب البروليتاريين » . لقد ادخل ن. ج. مار الى علم اللغة نظرة خاطئة غير ماركسية بقصد اللغة واعتبارها بناء فوقياً ، فورّط نفسه في ذلك ، وورّط علم اللغة . ومن المستحيل تطوير علم اللغة السوفياتي على اساس نظرة خاطئة .

---

(١) منظمة ثقافية ظهرت ابان الحرب الاهلية ، وكانت تدعو الى طرح الثقافة الروسية القديمة باسرها ، وانشاء ثقافة جديدة لا تمتصلة الى ما سبقها من ثقافات . - المغرب .

وادخل ن. ج. مار إلى علم اللغة نظرة خاطئة وغير ماركسيّة كذلك بقصد «الطابع الظبيقي» لغة، وورّط نفسه في ذلك وورّط علم اللغة. ومن المستحيل تطوير علم اللغة السوفييتي على أساس نظرة خاطئة متعارضة مع كل سير تاريخ الشعوب واللغات.

وادخل ن. ج. مار في علم اللغة نبرة غير متواضعة لمبرة مزهوة متعالية لا تليق بالماركسيّة، وتؤدي، دون تفكير وعلى غير أساس، إلى دحض كل ما كان في علم اللغة قبل ن. ج. مار.

ويشجب ن. ج. مار، بصخب، طريقة المقارنة التاريخية التي ينعتها بد «المثالية». ومع ذلك فينبغي القول إن طريقة المقارنة التاريخية، رغم ما فيها من عيوب جدية، تفضل تحليل ن. ج. مار القائم على العناصر الاربعة، وهو تحليل مثالي حقاً. وذلك لأن الأولى تحفز إلى العمل ودرس اللغات، والثانية لا تدفع إلا القعود قرب المدفأة، واستشارة ثلاثة القهوة عن هذه العناصر الاربعة الشهيرة.

ويرفض ن. ج. مار، بعنجهية، كل محاولة لدرس فسائل (عائلات) اللغات، ويرى فيها مظهراً لنظرية «اللغة الأم». ومع ذلك لا يستطيع امرؤ أن ينكر أن القرابة اللغوية بين أمم مثل الأمة السلافية مثلاً لا، تترك مجالاً لاي شك، وإن درس القرابة اللغوية بين هذه الأمم يمكن أن يكون ذا منفعة كبرى لعلم اللغة، فيما يتعلق بدراسة

قوانين تطور اللغة . ومن المفهوم ان نظرية « اللغة الأم »  
ليس لها اي دخل هنا .

عند سماع ن . ج . مار ، وخصوصاً عند سماع تلاميذه ،  
يتبادر الى الظن ، انه لم يكن هناك اي علم لغوي ، قبل  
ن . ج . مار ، وان علم اللغة قد بدأ حين ظهور «المذهب  
الجديد » ، مذهب ن . ج . مار ، ان ماركس والإنجلز  
كانا أكثر تواضعاً : فقد كانوا يعتبران ان مادياتهما  
الديالكتيكية ، هي نتاج لتطور العلوم ، بما فيها الفلسفة ،  
خلال العصور السابقة .

وهكذا ، ساعدتنا المناقشة ايضاً بمعنى انها اظهرت النواقص  
الفكرية في علم اللغة السوفيatici .

اني اعتقد ان علم اللغة عندنا ، كلما اسرع في التخلص  
من اخطاء ن . ج . مار ، كان في الامكان اخراجه بشكل  
اسرع من الازمة التي يحيط بها الان .

ان تصفية نظام « اراكتشيف » في علم اللغة ، والتخلص  
عن اخطاء ن . ج . مار ، وادخال الماركسيه في علم اللغة ،  
تلك هي في رأيي الطريق التي تسمح بادخال الصحة والعافية  
إلى علم اللغة السوفيatici .





# صدر عن

دار الطبع والنشر باللغات الاجنبية في موسكو  
ومن توزيع دار القلم - بناية التיאtro الكبير - بيروت

١٠٠	الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية	لينين
١٠٠	في اسس الليينينية وحول مسائل الليينينية	ستالين
١٠٠	الماركسية ومسئولة الوطنية	ستالين
١٠٠	يتحدث عن لينين	ستالين
١٠٠	مزيفو التاريخ	



صدر عن دار القلم  
٢٢٩٥ ص.ب. بيروت

٥٠	الاسعار والاجور والارباح	ماركس
٥٠	حول تاريخ الفلسفة	جدانوف
٧٥	الطبقة والامة	غليزرمي
٥٠?	لماذا يناضل الاتحاد السوفيتي من اجل السلم؟	نورولي





